مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ التَّكوِيرِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة التكوير

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة التكوير

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾﴾

تناولت سورة التكوير أهوال يوم القيامة، وعلامات وقوعها، وإثبات أن القرآن العظيم هو كلام رب العالمين، نزل به جبريل على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم. وقد بدأ البيان العظيم بالتحولات التي تحدث وتطرأ على الشمس حين تقوم القيامة. فقال تعالى ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ إذا الشمس لُفَّت، فذهب ضوؤها، حيث تُلف وتجمع. وقد ورد في معنى ذلك: أنه أُظلمت الشمس، وذهب ضوؤها، واضمحلت، وغُوِّرَت، وتُلَف وتُمْحَى. قال المفسرون: تُجمع الشمس بعضها إلى بعض، ثم تُلَف[1] وتنتهي.

وقد بدأ الله تعالى هذا البيان العظيم بحرف ﴿وَإِذَا﴾ وهو ظرف يستدعي مُتعلقاً آخر، لأنه أيضاً شرط، يُؤذن بذكر جواب بعده، فإذا سمعه السامع ترقب ما سيأتي بعده، وهذا الأسلوب بقصد الاهتمام بما أسندت إليه الأفعال التي يغلب أن تكون شروطاً لحرف ﴿وَإِذَا﴾ لأن الابتداء بها أدخل التهويل والتشويق[2] وقد تكرر حرف ﴿وَإِذَا﴾ اثنتي عشرة مرة.

ثم يعطف البيان الكريم على تكوير الشمس حدث آخر متعلق بالنجوم، فقال عَزَّ وجل ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ أي: وإذا النجوم تناثرت، وتهافتت، ثم تلاها تسوية الجبال، فقال عَزَّ وجل ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ أي: وإذا الجبال قُلِعت من على وجه الأرض، وسُيِّرَت في الهواء، وسُيِّرت بتحولها كثيباً

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨٨/٨)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٩٦/١٢-٤٩٧)

مهيلاً، بعد أن سُيِّرت ثم سُوّيت مع الأرض. فمن بلاغة دلالة ﴿سُيِّرَتۡ﴾ أنها تجمع التحولات التي تحصل على الجبال يوم القيامة. فقد ورد في سورة الواقعة ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾ أي: تفتت تفتتاً عن تماسكها وقوتها وشموخها. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: فُتِّتِ الجبال فتاً، فصارت كالدقيق المبسوس، وهو المبلول. والتبسيسة عند العرب: الدقيق، أو السويق، يُلَتُّ ويُتَّخَذُ زاداً[١] ولذلك قال تعالى تأكيداً لذلك ﴿فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ أي: كالغبار يثور ثم يذهب فلا يبقى منه شيئاً. لأن الانبثاث يفيد معنى التطاير، فتصبح الجبال بصخورها العظيمة تراباً متطايراً. وورد في سورة الكهف قوله تعالى ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾ أي: حين تُقتلع الجبال، فتسير عن وجه الأرض، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تُسَيَّر الجبال عن وجه الأرض، كما يُسَيَّر السحاب في الدنيا، ثم تُكَسَّر، فتكون في الأرض كما خرجت منها[٢] وفي سورة طه، قوله تعالى ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾ يقول الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ﴾ فإن الناس يسألونك أيها النبي صلى الله عليه وسلم عن الجبال، كيف تكون يوم القيامة؟ ﴿فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾ قال المفسرون: النسف: التذرية، والمعنى: يُصَيِّرُهَا ربنا تبارك وتعالى رمالاً تسيل سيلاً، ثم يصيرها كالصوف المنفوش، فتُطيرها الرياح، فتستأصلها ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: يدع أماكنها من الأرض إذا نسفها مستوية ممهدة ﴿قَاعٗا﴾ قال ابن قتيبة: القاع من الأرض: المستوي، الذي يعلوه الماء ﴿صَفۡصَفٗا﴾ والصفصف: المستوي أيضاً، يريد: أنه لا نبت فيها[٣] فتبقى أرضاً ملساء، مستوية، لا نبات، ولا انخفاض، ولا ولا ارتفاع، بل إن من دقة استوائها أن الناظر لا يرى أي انحراف أو اعوجاج.

ثم عطف هولاً آخر على هذا الهول العظيم الذي يحصل للجبال، فقال سبحانه وتعالى ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾ جمع عشراء، وهي الناقة الحامل. فإذا النوق ﴿ٱلۡعِشَارُ﴾ الحوامل بأولادها في بطنها، والتي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، فلا يزال ذلك اسمها حتى تضع[٤] وإذا النوق الحوامل ﴿عُطِّلَتۡ﴾

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨٢/٢٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠٥/٥)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٢٢/٥)

(٤) القرطبي، الجامع حكام القرآن (١٤٩/١٩)

تُركت لا اهتمام لها ممن كان يرعاها. بما يفيد ذهول أصحابها عنها بالرغم مما كانت تلقاه من عناية أصحابها بها، انتظاراً لولادتها وتكاثرها.

ثم عطف سبحانه وتعالى على هذا الذهول العظيم الذي يحصل للإنسان عن جُلَّ ما كان يهتم ويعتني به، يعطف عليه حالة أخرى من أهوال يوم القيامة. فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ وإذا الحيوانات البرية جُمِعَت، فإن من تلك العلامات والأهوال اجتماع الدواب من الحيوانات. وكذلك من عظيم اهوال يوم القيامة هو قوله عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ أي: وإذا بالبحار أوقدت ناراً. وقيل: امتلأت ماء، وفاض بعضها على بعض، وقيل: ذهب ماؤها. قال الطبري رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب من قال: مُلِئت حتى فاضت، فانفجرت وسالت، كما وصفها الله تعالى في الموضع الآخر، فقال تعالى في سور الانفطار ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ والعرب تقول للنهر، وللرَّكِيِّ المملوء ماء: مسجور[١] مما يبين ويُظهر اختلاف قوانين الدنيا بقدرته جَلَّ جلاله. فإنه يوم مهول.

ثم عطف سبحانه وتعالى على هذا التحول والتغيير الذي يحصل على ما كان يتعايش معه الإنسان من الشمس، النجوم والجبال والدواب، يعطف عليه حال التجمع بين الناس حسب نظائرهم. فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ وإذا بالنفوس المتشابهة في أعمالها تقترن بمن شابهها، فيقترن الصالح مع الصالح، والفاجر مع الفاجر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة. السابقون زوج. يعني صنفاً. وأصحاب اليمين زوج. وأصحاب الشمال زوج[٢] وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون معه. وذلك أن الله تعالى يقول في سورة الواقعة ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ وهو الذي رجحه ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى[٣] فيقترن كل أحد بنظيره من أهل الدنيا في الصلاح وفي الفجور.

وكذلك من دقائق أحوال وأهوال يوم القيامة قوله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴾ وإذا البنت التي دُفِنت وهي حية، تسأل عن سبب قتلها من غير ذنب. وهو مما كان من أفعال الجاهلية، فَتُسأل عن سبب

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤٠/٢٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥١/١٩)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤٢/٢٤) ورجحه في (١٤٥/٢٤)

قتلها، بطريقة الوأد. فالوأد هو دفن الحي في الأرض كالميت. ففي ذلك اليوم تُسأل ﴿ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴾ بأي سبب وعقوبة تم دفنها، بما يفيد الاقتصاص لها ممن دفنها. ليظهر كمال عدل الله تعالى. وتشنيع هذا الصنيع البشع. وفي سؤالها تقريع لمن وأدها من غير ذنب، غير أنه امتعض من كونها أنثى، فيرى أن العار قد لحق به. مما يُظهر عمق الجهل الذي وصل بأهل الجهل إلى هذا الحد.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى وقت استلام العباد صحائف أعمالهم التي كتبتها الملائكة عليهم حينما كانوا في الحياة الدنيا، فقال تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴾ وإذا تم نشر صحف أعمال العباد، فتنشر لهم، بعد أن كانت مطوية بما فيها من أعمالهم الدنيوية، فمنهم من يأخذ صحيفته بيمينه، وهو المؤمن، ومنهم من يأخذها بشماله، وهو الكافر.

وفي ذلك اليوم المهيب تُكشط السماء بانتزاعها عن مكانها، وذلك بطيها. قال تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴾ أي: وإذا السماء أُزيلت بطيها، فَنُزِعَت فَطُويت كما قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ فإن ذلك اليوم يتم فيه طي السماء بمثل ما تُطوى به الورقة، على ضخامتها وعظمتها، فإن الله تعالى يجعلها مطوية كالسجل، الذي هو عكس النشر. والسجل: هو الصحيفة والورقة التي يُكتب عليها. فيكون معنى الكشط هو الإزالة.

ثم يخبر تبارك وتعالى بشأن الجحيم التي أُعدَّت للكافرين. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴾ وإذا الجحيم التي هي النار قد أوقدت وأضرمت للكفار. بينما تُقَرَّب الجنة من المؤمنين. قال تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴾ قُرِبَت الجنة لأهلها المؤمنين، فهي قريبة من أهلها، حيث ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴾ فكل نفس قد علمت ما كان منها في الدنيا. قال ابن جرير الطبري والقرطبي رحمهما الله تعالى: وهذا جواب ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴾ وما بعدها(١) وبالتالي إذا ظهرت تلك العلامات فإن كل نفس تعرف ما قَدَّمَت، وما هي قادمة إليه، وأين سيكون مصيرها. إلى الجنة أو إلى النار ؟

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥٢/٢٤) القرطبي، الجامع حكام القرآن (١٥٤/١٩)

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

وبعد بيان الله تعالى للمتغيرات التي تحدث يوم القيامة، وما فيها من الأهوال العظيمة، يُقسم الله تعالى بالنجوم التي تنطفي وتغيب فتخنس في النهار ولا تظهر إلا في الليل، فقال تعالى ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴾ فأقسم عَزَّ وجل بالكواكب التي تخنس عن الظهور، لأنها تظهر في الليل وتخنس أي تغيب وتنطفي أنوارها بالنهار، ولذلك سُمِّيت بحالتها من الخنوس. وقد أفادت ﴿ فَلَآ ﴾ التي دخلت على القسم: التوكيد وتعظيم المُقسَم به. التي هي النجوم، وكذلك تعظيم الذي أقسم عليه، الذي هو جواب القسم، وهو ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ وتفيد كذلك تعظيم جميع ما تقدم وسبق من بيان أحوال وأهوال يوم القيامة. لإفادة تأكيد تحققه، وتكذيباً لمن أنكر، ومن ذلك افتراء المفترين بأن القرآن شعر وسحر، وكهانة. أي: فلا تنكروا ولا تجحدوا ولا تكذبوا ما بيناه لكم، وما تضمنه القرآن وأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم من الحجج. وبأن هذا القرآن كلام الله حق لا ريب ولا شك فيه. فاستوفت دلالتها التأكيد للحق والنفي للافتراء، وتعظيم المقسوم به.

ثم زاد البيان في وصف ما أقسم الله تعالى به من حال هذه الكواكب عند خنوسها، وحال غيابها في أبراجها، ففال تعالى ﴿ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴾ أي: تدخل في كناسها، فتغيب في الموضع الذي تغيب فيه. فقد أفادت دلالة ﴿ ٱلۡجَوَارِ ﴾ جريانها، فالجواري جمع جارية، من الجريان. وأفادت دلالة ﴿ ٱلۡكُنَّسِ ﴾ دخولها في كناسها الذي تغيب فيه. قال ابن الجوزي: وسماها كُنَّساً لأنها تكنس. أي: تسير كما تكنس الظباء. قال الزجاج رحمه الله تعالى: تخنس: أي تغيب. وكذلك تكنس أي: تدخل في كناسها، أي تغيب في الموضع الذي تغيب فيه(١) وبمثل ذلك قال ابن عاشور رحمه الله تعالى(٢) مما يبين عظيم خلق الله تعالى، مع لفت الانتباه لهذه الحالة التي عليها النجوم، والتي تستدعي التأمل لعظمة خلق الله تعالى، وعظمة تدبيره لها، والتي تؤكد وتبين وجوب

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٢/٨)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٥٠٦/١٢)

الإيمان بالغيب قياساً على ما ترون من عظيم صنعه عَزَّ في علاه. مما يبين أهمية التدبر، وأهمية الاعتبار بالمشاهد على علم الغيب والإيمان به. فقياس عظمة الخلق مما يشاهده الإنسان على عظمة الغيب، وبأنه أمر متحقق. مما يبين أهمية التدبر في الكون. فإنه حجج وبراهين لكل متدبر.

وبعد هذا القسم الأول من الله تعالى، يعطف عليه سبحانه وتعالى القسم الثاني: فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ أي: والليل إذا ولى وأدبر. قال الفراء: أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر. وقيل: عسعس الليل إذا أقبل أو أدبر[١] فجمعت دلالة ﴿ عَسۡعَسَ ﴾ حركة الليل عند قدومه وعند إدباره وتوليه. وهذا من دقائق البيان في اختيار الدلالة التي تجمع استيفاء كامل المراد. بما يفيد ويدل على الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

ثم يُقسم الله تعالى بالقسم الثالث ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ والصبح إذا امتد بوضوحه ونهاره، فأقبل النهار بضوئه وتبين. ثم بعد هذه الأقسام الثلاثة العظيمة يأتي جواب القسم الذي هو المقسوم عليه، فقال تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ إن هذا الذي يقوله رسولنا صلى الله عليه وسلم، وهو القرآن العظيم إنه ﴿ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ وهو جبريل عليه السلام، فهو قول مَلَكٌ كريم، بما يُثبت أنه حق، وينفي به كل افتراء على القرآن العظيم، وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد استهل جواب القسم بدلالة ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ التي اشتملت على نون التوكيد التي التحق بها الضمير العائد على القرآن العظيم. فأفادت تأكيد ما بعدها من البيان، بأنه قول رسول، وليس غير ذلك ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ وأنه هذا الرسول قد اتصف بأنه ﴿ كَرِيمٖ ﴾ والتي جمعت خصال مكارم الأخلاق، بما يفيد كرم طباعه، وأنه ذو شرف ومنزلة خاصة، وأن الذي وصفه وزكاه بذلك هو الله سبحانه وتعالى، مما يدل على عظيم منزلة جبريل عليه السلام. وفي هذا تشريف وتكريم لما نزل به، وهو القرآن العظيم، ولمن أُنزل عليه، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم. وبالتالي نفى جَلَّ جلاله عن القرآن جميع أنواع الافتراء.

فقد أفاد هذا القسم إثبات أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، وتكذيب لجميع أنواع الافتراء من الطعون المخترعة الكاذبة، ومن ذلك افتراءهم بأن القرآن شعر وسحر، وكهانة. أي: فلا تنكروا ولا تجحدوا ولا تكذبوا ما بيناه لكم من جليل هذا الإنعام بنزول هذا القرآن العظيم، وما تضمنه من الحجج. وأنه كلام الله حق لا ريب ولا جدال فيه. فاستوفت دلالتها التأكيد للحق والنفي للافتراء والباطل، وتعظيم المقسوم به. وهذا من

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩/١٥٥)

عظيم البيان في تناسق دلالاته التي تُظهر عظيم بلاغته، وترابط نسقه، الذي يتأكد به الإعجاز له من كل وجه. فسبحان من أظهر إعجازه في كلامه تبارك وتعالى؛ كما أظهره في مخلوقاته وآياته الكونية.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بالمزيد من الوصف الكريم للمَلَك جبريل عليه السلام. فقال تعالى ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ فإنه صاحب قوة فيما كلفه الله تعالى به ﴿ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ وصاحب رفعة ومنزلة ومكانة عند الله تعالى صاحب العرش العظيم جَلَّ جلاله. فهو ﴿ مَكِينٍ ﴾ أي: فله مكانة مخصوص بها عليه السلام. بما يفيد أن جبريل عليه السلام نزل بالقرآن العظيم كما تلقاه من ربه سبحانه وتعالى، وتلقاه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من هذا الْمَلَك الكريم، القوي، المكين، ذو المنزلة والمكانة الرفيعة عند رب العالمين.

ثم يزداد الوصف الكريم لجبريل عليه السلام، فقال تعالى عنه ﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ فإن جبريل عليه السلام قد اتصف بأنه مُطاع من الملائكة عليهم السلام. وكذلك ﴿ أَمِينٍ ﴾ فإنه مُستأمن على وحي الله تعالى، وعلى جميع ما يكلفه الله تعالى به من التكاليف. مما يبين أهمية صفة الأمانة والكرم في أداء ما أوكل الله تعالى للعباد من التكاليف.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى تزكية رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك بنفي ما نسبوه إليه من الجنون. فقال تعالى ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ وما صاحبكم الذي صحبتموه بمجنون، فإنه لا يتكلم عن جنون. وقد تضمن هذا الوصف غزارة من الفوائد التي أقامت عليهم الحجة. حيث نعته الله تعالى ووصفه بالمصاحبة لهم ﴿ صَاحِبُكُم ﴾ والصحبة تفيد المعرفة الحقيقية الناتجة من الملازمة لكم، أي: بينكم وبينه عليه الصلاة والسلام، زمناً طويلاً من الملازمة والمصاحبة، قد بلغت أربعون سنة. فتعرفونه حق المعرفة. وبالتالي تعرفون أنه عليه الصلاة والسلام ليس بمجنون، بل أعقلكم وأحسنكم أمانة وخُلُقاً، مع نفينا عنه بهتانكم ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ بما يفيد أنكم قد افتريتم عليه هذه الفرية التي تعرفون أنها افتراء لا حقيقة لها. فأثبت سبحانه وتعالى الكذب عليهم، ونفي ما افتروه عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم يثبت سبحانه بأن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم قد رأى جبريل على هيئته. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ فقد رأى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام ﴿ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: لقد رأى محمد جبريل صلى الله عليه وسلم في صورته بالناحية التي تبين الأشياء، فترى من قِبَلِها. وذلك من ناحية مطلع الشمس، من قِبَل المشرق، وبنحو الذي قلنا قال

أهل التأويل[١] وذكر القرطبي رحمه الله تعالى مثل ذلك: فإنه رآه بالأفق المبين في صورته، له ستمائة جناح، بالأفق المبين. أي: بمطلع الشمس من قبل المشرق، لأن هذا الأفق إذا كان منه تطلع الشمس فهو مبين، أي من جهة تُرى الأشياء[٢] مما يبين أنه عليه الصلاة والسلام قد رأى جبريل عليه الصلاة والسلام على هيئته العظيمة بفضل من الله تعالى، فليس لأحد أن يفتري، ويكذب على رسوله صلى الله عليه وسلم ما رأى.

ثم تستمر التزكية من الله تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ فإن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس ببخيل في تعليمكم مما علمه الله تعالى به. بل كريم سخي، مُحب للعطاء والوفاء. وفي قراءة أخرى تبديل الضاد إلى حرف (ظ) فبدل ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ يكون بظنين. فيكون المعنى: ليس بِمُتَّهَم على ما يخبر به عن الله تعالى. مما يبين تعاضد معنى القراءتين، فأعطت كل قراءة مدلولاً يعضد الآخر، ولا يضاده ولا ينافيه، فكلاهما مدح في حق الرسول صلى الله عليه وسلم، مما يبين عظيم فوائد القرآت في القرآن الكريم.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى بأسلوب النفي من أن يكون القرآن العظيم فيه شيء من أقوال الشياطين، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ فليس هذا القرآن العظيم بقول شيطان ﴿ رَّجِيمٍ ﴾ أي: مطرود ملعون، بل هو كلام الله تعالى بوحيه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، بما يفيد تكذيب المفترين المكذبين، ودحرهم وتكذيب وإبطال بهتانهم، وذلك بتزكية رب العالمين لرسوله عليه الصلاة والسلام. مما يبين أن هناك من يتجرأ على الله تعالى، وعلى كتابه، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، فكيف بمن هم دونهم من الخلق، مما يتطلب الصبر والحكمة في التعامل الناس، كما هو منهج الله تعالى.

ثم يدعوهم سبحانه وتعالى بحكمته العظيمة إلى الاتعاظ، فيوجههم بسؤال عن غياب عقولهم وأذهانهم عما في القرآن من الحجج والبراهين. فيقول جَلَّ جلاله ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ فإلى أين تذهبون وتتجهون عن هذا القرآن العظيم ببيانه، ومواعظه، وتشريعه وأحكامه، وحلاله وحرامه؟ سؤال إلى أين تعدلون عن كتاب ربكم وطاعته الواضحة لكم؟ بما يفيد ويُثبت أن ليس عدولهم عنه إلا للباطل، والذي تخسرون به الدنيا والآخرة. فهو سؤال يستثير العقل للرجوع إلى الحق، وإلى التعقل.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦٦/٢٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٧/١٩)

ثم يحصر ويحدد سبحانه وتعالى مقاصد كتابه القرآن العظيم في أنه للتذكير، والإرشاد، لجميع العالمين. فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ فما هذا القرآن الكريم العظيم إلا ذكر من الله تعالى للجميع. وخص العالمين ﴿ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ليشمل جميع المكلفين من الإنس والجن. وجملة قوله تعالى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ تفيد القصر على أن ما تضمنه القرآن الكريم هو مواعظ وإرشاد، وأحكام وشريعة للعالمين، فليس فيه خلاف ذلك. فإنه يرشد ويُذكِّر العالمين بما يجب عليهم، فينتفي به كل ما هو خارج عن الذكر والتذكير، ومن كل ما يظنون أو يفترون من الكذب. فهو تصحيح للناس، وتزكية للقرآن الكريم إلى قيام الساعة.

وبعد أن أثبت الله تعالى أن هذا القرآن هو كلامه سبحانه وتعالى، وأنه نزل به الروح الأمين على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، وأنه تذكرة للعالمين، يخبر بعد ذلك بأن لكل أحد الخيار في الإيمان أو الكفر ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ فهو تخيير يحمل دلالة التهديد لمن خالف طريق الاستقامة. فكل أحد هو المسؤول عما يكون عليه من الكفر أو الإيمان ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ فمن شاء منكم أن يؤمن ويطيع، ومن شاء منكم أن يُنكر ويكفر. فأثبت الله تعالى بهذا البيان مسؤولية الإنسان عن نفسه في اختياره طريق الخير والحق، أو اختيار طريق الشر والباطل. فإن دلالة قوله تعالى ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ ﴾ إثبات أن للإنسان مشيئة في الاختيار، بما منحه الله تعالى من العقل، والإرادة، وبما أرسل له من الرسل بالحجج. وأن الإنسان هو الذي يختار بنفسه ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ وذلك بقبول ما أُنذر به، فيلزم ويلتزم بالطاعة، والعمل بما يُقَرِّبُه من ربه تبارك وتعالى، أو يختار لنفسه المعصية.

ولأن الله تبارك حصر الاستقامة في دينه العظيم ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ ما يبين أن من أخذ بغيره فإنه لم يستقم أمره وشأنه، وأنه حاد وابتعد عن قبول الحق. ومن دقائق السياق العظيم أنه سبحانه وتعالى قد سمَّى القبول بالحق استقامة ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ وبالتالي فإن عدم القبول هو المعصية والانحلال والاعوجاج والانحراف.

فقد جعل الله تعالى لعباده اختيار الطاعة أو المعصية ﴿ لِمَن شَآءَ ﴾ حتى يُحاسب كل أحد بما اختار من الحق أو الباطل. بعد أن رجح لهم وحثهم على تخصيص اختيار السبيل والطريق الذي يتحقق لهم به النجاة، وهو طاعته جَلَّ جلاله، فقال عَزَّ وجل ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ فمن شاء اتخذ سبيل وطريق الاستقامة الذي يتحقق لهم به النجاة. بما يفيد التحضيض والحث لهم على اختيار سبيل ربهم، لأنه طريق

الفلاح لمن أخذ به. فهو طريق وسبيل الله سبحانه وتعالى المستقيم. فعليهم أن يُذعِنُوا لله ربهم عَزَّ وجل، ولرسوله صلى الله عليه وسلم فيما جاءهم به من الحق. وهذا من عدل الله تعالى، بل زاد عن العدل برحمته لهم، أن وعظهم بكل وجه يُوصلهم إلى الحق والخير والنجاة، ويجنبهم العذاب. فالحمد لله رب العالمين على كريم فضله ووعظه.

ثم يتدرج البيان الكريم إلى إظهار قوة مشيئته التي هي فوق كل مشيئة، والتي منها مشيئة الإنسان.

فقال الله تعالى ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فليس لأحد الانفراد بالمشيئة المستقلة، والمنفردة عن مشيئة الله تعالى، فإن كل مشيئة هي تحت سلطان مشيئة الله تعالى. بما يفيد: أن الله تعالى لو شاء أن لا تكفروا، لجعلكم مؤمنين بقدرته وسلطانه، فلا تعتقدوا بكفركم أنكم خرجتم عن سلطان ربكم ومشيئته. فإنكم تحت قبضته. بما يصحح مفاهيم العباد عن المشيئة، بأنها مشيئة مقيدة بمشيئة الله تعالى.

فقد جعل الله تبارك وتعالى بحكمته للإنسان مشيئة من الاختيار، وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر، وهذه المشيئة تحت مشيئة الله تعالى، فلا يعني ذلك أن الإنسان منفرد بها، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذي منحها للإنسان بمشيئته، ويمنعها بمشيئته. فيصحح سبحانه وتعالى مفاهيم عباده، ويعلمهم الحق وسبيله، حتى يعلموا ما يجب عليهم، وما هم عليه. وأن ذلك لا يعني أنهم قد خرجوا عن مشيئته سبحانه وتعالى. كما يصحح بهذا البيان أفهام من حاد فهمه عن الصواب. وهذا من عظيم التدبير والحكمة والعدل من الله العزيز الحكيم. وفي سورة الشمس، قال تعالى ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ فعرفها وأفهمها بما يجعلها تدرك الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، حتى تتحمل مسؤولية ما يكون منها.

ومن دقائق البيان أن أورد سبحانه وتعالى ربوبيته لجميع العالمين ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فإن ربكم عَزَّ وجل هو رب العالم كله. ليفيد عظمة سلطانه ومشيئته، وأن كل مشيئة في العوالم لا تكون إلا وفق مشيئته، فليس هناك مشيئة مستقلة، فحتى من كفر فإن كفره لو شاء عَزَّ وجل لما كان منه الكفر. فإن رب العالمين هو الذي له السلطان على كل شيء، وهو الذي أنزل عليكم القرآن بعلو سنده من الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، بما أوحاه به عليه من خلال المَلَك جبريل عليه السلام. فالحمد والشكر لله رب العالمين.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة التكوير. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.